تداعيات الحرب والنِّزاع المسلَّح خلال العام 2019 على تعليم الفتيات في ليبيا

سعاد محمَّد العباني

مقدِّمة

منذ العام 2011 يمرّ المُجتمع اللّيبي بحالات من الاضطراب الاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصاديّ والأمنيّ، وأعمال عنف مسلَّحة ناشئة عن نِزاعات وصراعات داخليّة تَركت أثارها السلبيّة على الأسرة والمُجتمع، ووظائف مختلف المؤسّسات ومن ضمنها المؤسّسة التعليميّة. فكان لهذه الأعمال بالغ الأثر على النسيج الاجتماعيّ بحيث أصبحت الأزمة بنيويّة وشملت آثارها الاجتماعيّة والاقتصاديّة أنحاء التراب اللّيبي كافّة. كما شهد المُجتمع اللّيبي حالةً من النِّزاع المسلَّح سنة 2019 استمرّت لمدّةٍ تزيد على السنة شملت بتداعياتها المنظومة التعليميّة التي كان لها أثر بالغ على الحياة اليوميّة للأطفال والفتيات، بما في ذلك الحدّ من القيام بأنشطتهم التعليميّة ومن التواصل الاجتماعيّ الحرّ مع جماعات الأصدقاء والأهل والأقارب؛ وقد ترتّب عن ذلك توتّرٌ في علاقتهم مع المحيط الأسري، قد يُسهِم في الدّفع نحو سلوكيّات خطِرة ذات تداعياتٍ على حياتهم المستقبليّة. ويُظهر تقرير قسم الشؤون الإنسانيّة في اللّجنة الوطنيّة لحقوق الإنسان في ليبيا سوء الأوضاع والظروف الإنسانيّة التي مرّ بها الأطفال والفتيات، فضلاً عن مؤشّرات على حجْم المُعاناة

الإنسانيّة التي مرّ بها الأطفال والفتيات، كأبرز نتائج النِّزاع والأزمة السياسيّة التي شهدتها البلاد. الأرقام تشير إلى أنّ هناك قرابة 30.000 طفل في أنحاء البلاد يكابدون الألم والمُعاناة والأزمة الإنسانيّة والمعيشيّة والصحيّة والنزوح، حيث تتعرّض آمال وطموحات الأجيال المستقبليّة للخطر وقد تعوِّق مستوياتهم المعرفيّة وطموحهم الطبيعيّ، وخصوصاً أنّ منازلهم ومَدارِسهم تدمّرت، وأنّ حياتهم هُدِّدت بشكلٍ واضح بسبب الأوضاع الإنسانيّة والمعيشيّة المأساوية خلال الحرب والنِّزاع المسلَّح المرعب.

من هذا المنطلق تحاول هذه الدراسة تقديم تصوُّر حول المعاناة التي لحقت بالفتيات، وبخاصّة بعد حرب 2019 التي استمرّت أكثر من عامٍ كاملٍ على مدينة طرابلس اللّيبيّة تحديداً؛ وتُركّز محاور التحليل في هذه الدراسة أساساً على محاولة وضع إجابات لمجموعة من التساؤلات ومنها:

ما هي الأوضاع الراهنة للمنظومة التعليميّة للفتيات اللّيبيّات في واقعٍ متغيِّر؟ ما هي تداعيات الحرب على العمليّات التعليميّة والالتحاق المدرسيّ، ولاسيّما مع تأزُّم الوضع مع عمليّات النزوح والتهجير القسريّ المصاحب للنزاع المسلَّح؟ وما هي الضروريّات اللّازمة لبناء مشاهد تُيسِّر من تجاوز هذه المُعاناة؟

حالة الحروب والنِّزاع المسلَّح في ليبيا

على الرّغم من كره جميع شعوب العالَم للحروب والنِّزاعات، إلّا أنّها ظاهرة إنسانيّة قديمة. والحرب في اللّغة تعني قتالاً بين فئتَيْن، وجمعها حُروب وعكسها سِلْم[1]. وفي الاصطلاح ووفق القوانين الدوليّة، فإنّ الحربَ هي حالة نِزاعٍ بين مجموعاتٍ أو أقطارٍ أو دول، ولها أسباب متعدِّدة قد يكون منها السعي إلى السيادة على الأراضي أو المصادر الطبيعيّة، أو الصراع على الحُكم، أو فرْض عقيدة دينيّة معيَّنة أو أيديولوجيّة محدَّدة؛ وحالة النِّزاع تتضمّن الاستخدام المنظَّم للأسلحة بكلِّ أنواعها التقليديّة وغير التقليديّة، من قِبَل الدول أو المجموعات المُتنازعة.

وما تشهده ليبيا من نزاعٍ مسلَّح خلال السنوات الأخيرة، هو نَوع من أنواع الحروب الأهليّة، فقد شهدت البلاد الصدام والاقتتال، والحرب بين أبناء البلاد الواحدة وضمن

(1) معجم المعاني الجامع.

حدودها الجغرافيّة الواحدة. وغالباً ما يكون الحلّ لهذا النَّوع من الحروب كامناً إمّا بالتفاوُض السلميّ بين أطراف الصراع أو بهزيمة أحدهما. أمّا السبب في اشتعال نيران الحروب الأهليّة عادةً، فيكمن في الصراع على السلطة والنفوذ والحُكم والسيادة بين أبناء الدولة الواحدة. وتكون نتائج هذه الحروب كارثيّة على المدى القريب، سواء على المستوى الاقتصاديّ والاجتماعيّ أم حتّى السياسيّ والأمنيّ، وتستمرّ في التأثير في هذه الجوانب على المدى البعيد، فهي تُركِّز على المناطق الآهلة بالسكّان، فتتعرّض تلك المناطق لهجماتٍ متقطِّعة غير مُنتَظرة، ويتولّد العداء بين الأهل والجيران، ويتمزّق النسيج الاجتماعيّ، وتُشلّ الحركة الاقتصاديّة. ويتَّفِق الدارسون والباحثون على أنَ هذه الصراعات تُؤدّي إلى ظهور الأزمات، وعلى أنّ آثار النِّزاعات المسلَّحة والحروب تتمثَّل في العديد من الجوانب ومنها:

- الفاقد البشريّ وهذا يشمل شرائح المُجتمع كافّةً، صغاراً أو كباراً، مسلَّحين أو مدنيّين، فنيران الحرب تطال الجميعَ ولا تُفرِّق بين الأطفال والنساء والرجال.
- الفاقد المادِّيّ للمُمتلكات والعناصر المادِّيّة كافّةً، وهو محتوىً شامل لكونه لا يُطاول البناء الاجتماعيّ ماديّاً، بتدميره المباني والبنى التحتيّة فحسب، بل بتدميره مؤسّسات الدولة كافّة.
- قد يترتّب عن الحروب نقصٌ في الموارد الغذائيّة الأساسيّة والمهمّة، ونقصٌ في مصادر الطّاقة الأساسيّة.
- انتشار الأمراض والأوبئة، ومخاطر الأبعاد المستقبليّة للأسلحة البيولوجيّة والكيماويّة وما يترتَّب عنها من تداعياتٍ سلبيّة على صحّة الجميع.
- تضرُّر المنظومة التعليميّة وإصابتها بالعجز والتردّي، فقطاع التعليم من أكثر القطاعات التي تأثَّرت بالنِّزاعات في المُجتمعات كافّةً التي شهدت وتشهد الحروب والنِّزاع المسلَّح.
- أبعاد وتأثيرات نفسيّة عميقة على جميع أفراد المُجتمع، وبخاصّة الصغار، والتي لها آثار سلبيّة على المدى القريب والبعيد.
- تستنزف الحرب رؤوس الأموال، وتُوظِّف الموارد المتوافرة كافّةً في البلد لتغذية الحروب، بدلاً من استثمارها وتوظيفها في المشروعات التنمويّة للنهوض بالمُجتمع وأنظمته المُختلفة، ولتجاوُز التخلُّف، وبخاصّة في البلدان النامية.

- تولِّد الحربُ أزمةَ نزوح وتهجير تُرهِق كاهلَ الدولة وتؤدّي إلى كسر الوتيرة التعليميّة للطالبات والطلّاب بشكلٍ خطِر.
- يترتّب عن الحرب الأهليّة تمزُّق النسيج الاجتماعيّ وتفكُّك أُسريّ واجتماعيّ.
- تداعي المنظومة القانونيّة بأشملها، وضُعف أجهزتها المختلفة، الأمر الذي يقود إلى انتشار الفوضى والجرائم المتعدِّدة وانعدام الأمن والاستقرار.

ويُؤكِّد الاقتصاديّون[2] على أنّ الحرب تُؤدّي إلى خَلَلٍ كبيرٍ في تخصيص الموارد المتاحة، من التخصيص لبرامج وخطط التنمية وتحسين الخدمات إلى التسليح وعلاج الجرحى، هذا إلى جانب تعطيل وتوقُّف القدرات الإنتاجيّة في الاقتصاد الوطنيّ.

لقد شهدت ليبيا حالاتِ النِّزاع المسلَّح وعانت ويلات الحرب الأهليّة بعد عام 2011. لقد بدأ التغيير المعاصر في النظام السياسيّ اللّيبي القائم منذ هذا العام، بعد الانتفاضات الاجتماعيّة في مدينة بنغازي شرق البلاد، والتي طالبت بمُحاسبة المسؤولين عن مجزرة سجن بوسليم التي وقعت في العام 1996 إبان النظام السياسي السابق (حكم القذّافي). ثمّ اشتعل فتيل الانتفاضة من المنطقة الشرقيّة وشمل ربوع البلاد كافّةً، ونتيجة التدخُّل الدوليّ وحلف شمال الأطلسيّ تغيَّرت الموازين، حيث انتصرت الجماهير الثائرة على النظام العسكريّ السابق الذي قاد البلاد وتحكّم بها لمّدة 42 سنة كاملة.

بَيْد أنّ الأزمة وُلِدت بعد ذلك؛ فبعد سقوط النظام السياسيّ الذي كان يحكم البلاد بلا دستور، ونتيجةً للتغيير الجذريّ في نِظام الحُكم، وحداثة عهد التجربة الديمقراطيّة في البلاد، وأيضاً لغياب الخطط الشاملة لبناء الدولة الجديدة، هَيمنت مجموعاتٌ إسلاميّة متشدِّدة وأَدّى التسلُّح إلى سلوك بعض المُدن اللّيبية، مثل بنغازي ومصراتة والزنتان، مَسلك المُنتصِر على مُدنٍ أخرى، وتحقّقت في سياق الحرب الأهليّة انتصاراتٌ في مُدنٍ ومناطق معيّنة، وهزائم في مناطق أخرى. وبعد أن فشلت النُّخَب التي برزت بعد العام 2011 في حلّ مشكلة العسْكرة، ازداد الوضعُ تعقيداً عقب بروز تجاذُباتٍ دوليّة وتدخُّلاتٍ إقليميّة على الأراضي اللّيبيّة، إلى أن اشتعل فتيل الحرب الأهليّة في ليبيا في العام 2014.

لقد ترتّب عن كلّ ذلك تدهورُ الأمن وانتشار السلاح بشكلٍ مرعب بيد الجماعات المسلَّحة، بحيث يكشف المسح العالَميّ للقِيَم لعام 2015 أنّ نسبةً عالية من اللّيبيّين

(2) **تقرير التنمية البشريّة الخامس تحدِّيات التنمية في ليبيا**، الهيئة العامّة للمعلومات (ليبيا ـ طرابلس، 2018).

(20.7%) يحملون السلاح لعدم إحساسهم بالأمن. ويجب الإشارة هنا إلى أنّ البلاد تعيش بشكلٍ عامّ حالة انفلات أمنيّ، ولربّما لدواعٍ أمنيّة يحمل الأفراد السلاح للدِّفاع عن أنفسهم وهذا ما يجعل ليبيا تحتلّ مركز الصدارة في انتشار السلاح بين أفراد المُجتمع[3] لتُصبح ظاهرة انتشار السلاح ظاهرةً ليبيّة بامتياز. ويُؤكِّد تقريرُ بعثة الأُمم المتّحدة للدعم في ليبيا[4] أنّ العنف في البلاد أدّى إلى سقوط مئات القتلى وإلى تفاقُم ظاهرة النزوح، مع تفاقُم الأزمة الإنسانيّة المستمرّة في العديد من المجالات. كما ازداد تعرُّض اللّاجئين وطالبي اللّجوء والمُهاجرين لسوء المعاملة. ووسط ضعف الحكومة وانتشار مختلف الجماعات القبليّة والجهويّة ما بين المُسلَّحين التابعين لهم، حاصرت الجماعات المسلَّحة البلاد وازدادت مستويات العنف، بل وأصبحت قضايا العنف والمُصالَحة تدور في حلقة مفرغة. لذا لم يكُن مفاجئاً أنّ تغدو الأولويّة السياسيّة لدى اللّيبيّين تتمثّل في الاستقرار والأمن، بحيث باتت أغلبيّة اللّيبيّين اليوم تعتبر نزْع سلاح الميليشيات، والاستقرار السياسيّ، والأمن الشخصيّ، من أهمّ القضايا التي ينبغي مُعالجتها[5].

وخلال شهر نيسان/أبريل سنة 2019، شهدت مدينة طرابلس حملةً عسكريّة شنّها الجيش الوطنيّ اللّيبيّ الذي يُمثِّل حكومة طبرق للاستيلاء على المنطقة الغربيّة من ليبيا، واستمرّت الاشتباكات بين الجيش الوطني اللّيبي بقيادة حفتر والجيش اللّيبي بقيادة السراج على تخوم العاصمة طرابلس لمدّة سنة كاملة وشهرَيْن، إلى أن توقّف النِّزاع المسلَّح في شهر حزيران/يونيو 2020.

وكما أسلفنا، فإنّ للحرب في أيّ بقعة من العالَم آثارها السلبيّة التي تُؤثِّر على كلّ فئات المُجتمع، وإنْ تفاوتت حدّتها بين واحدة وأخرى نظراً إلى عوامل مختلفة، ولعلّ الأطفال والفتيات هُم من أكثر الفئات تضرُّراً من نيرانها. وممّا لا شكّ فيه أنّ النِّزاع العنيف

(3) المسح العالَميّ للقيَم WVS، **المسح الشامل لآراء اللّيبيّين في القيَم. التقرير النهائيّ** (ليبيا ـ بنغازي: جامعة بنغازي مركز البحوث والاستشارات، 2015).

(4) بعثة الأُمم المتّحدة للدعم في ليبيا UNSMIL، «تقرير بعثة الأُمم المتّحدة للدعم في ليبيا حول أوضاع حقوق الإنسان في ليبيا (2015)»، **الأُمم المتّحدة مجلس حقوق الإنسان**، متاح على:

https://www.ohchr.org/Documents/Countries/LY/UNSMIL_OHCHRJointly_report_Libya_16.11.15_AR.pdf

(5) IFES (International Foundation for Electoral Systems), «Libya: Status of Women Survey,» (2013). http://www.ifes.org/sites/default/files/libya_status_of_women_survey_report_final2_2.pdf.

له تداعياته العميقة وأبعاده التأثيريّة والتي ستُؤثِّر في المُجتمع اللّيبي لفترات لاحقة طويلة الأمد. ولا ريب أنّ المنظومة التعليميّة نالها نصيب كبير من هذه الآثار، لذا ترصد هذه الورقة الواقع الاجتماعيّ الرّاهن للفتيات اللّيبيّات، وتحديداً واقعهنّ التعليميّ، انطلاقاً من تلك المعطيات.

تطوُّر الواقع التعليميّ للفتيات في ليبيا خلال السنوات الأخيرة

لبلورة صورة واضحة عن تداعيات الحرب على الفتيات في ليبيا، وعلى صعيد التنظير سيتمّ في البداية عرض ما حُقِّق من مكاسب في الجوانب التعليميّة للفتيات اللّيبيّات، فمن الاختفاء المطلق لنِسَب وبيانات الفتيات المتعلِّمات في الماضي، إلى التطوُّر السريع والواضح في الراهن الاجتماعيّ، حيث شهد مستواهنّ التعليمي تقدُّماً سريعاً بمعدَّلات تفوق مثيلتها بين الذكور. وقد ترتّب عن ذلك أن أصبح المستوى التعليميّ للفتيات يفوق في العديد من المراحل التّعليميّة مستوى الذّكور، وهذا ينطبق على مناطق ليبيا الريفيّة كافّة منها والحضريّة.

فالتغيُّرات التي طرأت على الواقع الاجتماعيّ تُؤكِّد أنّ الفتاة اللّيبيّة تعيش تحوُّلاتٍ اجتماعيّة مهمّة. فقد شهد المُجتمع اللّيبيّ تغيُّراتٍ في الأنساق الاجتماعيّة نتج عنها تغيُّراتٌ في دور المرأة ومكانتها في المُجتمع بشكلٍ عامّ[6]. ويتأكَّد من تقرير التنمية البشريّة الثالث في ليبيا (2006)، أنّ واقع المرأة الليبيّة قد تغيّر بشكل عميق عمّا كان عليه في الماضي، بحيث غيَّرت مرحلة التحوُّل التي مرّ بها المُجتمع اللّيبي خلال القرن العشرين أوضاع المرأة، وتقدّمت التشريعات المُعزِّزة لمسيرة التغيير، فتمّ إقرار مبدأ المساواة الكاملة بين الجنسيّن في الحقوق والواجبات. كما أنّ العديد من التغييرات المهمّة طاولت الصورة النمطيّة للمرأة نتيجة التغيير الذي حدث في أدوارها الاجتماعيّة ومكانتها الاجتماعيّة ونسق القِيَم المرتبط بها[7].

(6) Elabani, Suaad, «Attitudes to and Perceptions of Domestic Violence Against Women in an Arab Community: A Case Study of Libyan Migrants in the UK». (Ph.D. Thesis, Manchester Metropolitan University, 2015) https://e-space.mmu.ac.uk/582276.

(7) **تقرير التنمية البشريّة الثالث المرأة في الجماهيريّة (سابقًا): المُساواة مع الاختلاف**، الهيئة العامّة للمعلومات(ليبيا ـ طرابلس، 2006).

ونتيجةً لتطبيق مجّانيّة التعليم منذ خمسينيّات القرن الماضي وإتاحته لكلّ الأفراد اللّيبيّين الطالبين له والراغبين فيه، ونتيجةً أيضاً لاعتماد الدولة خطوات عديدة لتحسين مستوى تعليم الفتيات، شهدت معدّلات الالتحاق المدرسيّ لدى الفتيات تطوُّراً سريعاً[8]. وتشير الأرقام إلى أنّ نسبة الالتحاق المدرسيّ خلال العام (2012) بلغت حوالى 81.9% وأنّها ترتفع لدى الإناث إلى 82.7% في حين أنّها تنخفض لدى الذكور إلى 81.2%. ومن الملاحظ أنّ هذه النسبة ترتفع لدى الفئة العمريّة 15 ـ 13 لتصل إلى 98.5%، وأنّ معدّلات الالتحاق المدرسيّ استمرّ في التطوُّر ليشهدَ ارتفاعاً ملحوظاً لمصلحة الفتيات خلال العام 2015 بلغت نسبته حوالى 87.4% مقابل نسبة أقلّ لدى الذكور بلغت حوالى 86.45%[9]. ثمّة ارتفاع في معدَّلات التحاق الإناث إذاً تجاوزت معدَّلات التحاق الذكور بأكثر من نقطتَين في العام 2015 بعد أن كانت أقلّ بنحو 3.5 نقطة في العام 1995. لقد تمكّنت ليبيا من إغلاق فجوة النَّوع، بل إنّ هذه الفجوة أصبحت في مصلحة الإناث، ما يوضح أنّ ليبيا حالة مميَّزة في توفير التسهيلات التعليميّة للفتيات، وأنّها حالة فريدة من نوعها في خريطة التوزيع الطّلابيّ على أساس النَّوع الاجتماعيّ[10]. وتُشير بيانات وزارة التعليم اللّيبيّة إلى أنّ معدَّل القيد الإجماليّ في مرحلة التعليم الأساسيّ بلغ في العام الدراسيّ 2019/2018 نسبة 113%، كما ارتفع معدَّل الالتحاق الصافي ليصل إلى 98%، وذلك لكونها مرحلة إلزاميّة. وقد تمّ سدّ الفجوة بين الجنسيّن في التعليم حيث وصل معدَّل التكافؤ بين الجنسيّن لطلبة مرحلة التعليم الأساسيّ إلى 0.93، بحسب بيانات العام الدراسيّ 2019/2018[11].

كذلك اقتحمت الفتيات مختلف مجالات التعليم الجامعيّ وتخصّصاته، بل إنّ عدد الإناث في بعض كليّات الجامعات اللّيبيّة البالغ عددها سنة 2017 (24 جامعة) فاقَ عدد الذكور؛ وفي هذا السياق تشير النتائج النهائية للتعداد السكّانيّ (2006) إلى أنّ نسبة الإناث المُلتحقات بالدراسة في مرحلة التعليم الجامعيّ من إجمالي عدد الطلبة كانت

(8) مصلحة الإحصاء والتعداد، **التعداد السكّانيّ** (طرابلس ـ ليبيا، 2006).

(9) علي الشريف، **السكّان والتعليم والقوى العاملة في ليبيا** (طرابلس: الجامعة المغاربيّة، 2018).

(10) **التعليم في الجماهيريّة اللّيبيّة (سابقًا): التوازن بين تمكين الكفاءة وتفعيل الجودة النوعيّة** (تقرير بعثة البنك الدوليّ النهائيّ، 2008) (واشنطن، وثيقة فنيّة غير منشورة).

(11) **تقرير التنمية البشريّة الخامس تحدِّيات التنمية في ليبيا**، الهيئة العامّة للمعلومات (ليبيا ـ طرابلس 2018).

أعلى من مثيلتها لدى الذكور، وأنّ نسبة الإناث في التعليم الجامعيّ وصلت إلى 12.8% من عدد الإناث المُلتحقات بالتعليم. أمّا الذكور فقد كانت نسبة المُلتحقين منهم بالتعليم الجامعيّ إلى إجمالي الطلبة 10.41%[12].

وعلى الرّغم من هذه المكاسب التي نالتها الفتيات في ليبيا، بيد أنّ النظام التعليمي شهد العديد من العوائق التي حالت دون الوصول به إلى مستويات عالية من الجودة؛ إذ ثمّة تحدِّياتٍ كثيرة تُؤثِّر على النظام التعليمي للفتيات؛ ومن أهمّ القضايا والمشكلات التي لا تزال تواجه المُشارَكة التعليميّة للمرأة إشكاليّات جودة التعليم ومتابعة التخصُّص، وغياب التنسيق بين نِتاج العمليّة التعليميّة ومتطلّبات سوق العمل والعناية بتعليم الإناث خصوصاً في المناطق الريفيّة، ولاسيّما بالنسبة إلى التعليم الجامعيّ، بحيث تصبح البطالة والعمل والتكدّس في القطاع الرسميّ وفي مجالات محدَّدة (كالتدريس والعمل الإداريّ) محصّلة التعليم التقليديّ والسياسات المحدودة الرؤيا. كما أنّ الأزمة السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، وهشاشة الأوضاع الأمنيّة والنِّزاع المسلَّح، كان لها تداعياتها على المنظومة التعليميّة بشكلٍ عامٍّ، وأوضاع الفتيات التعليميّة بشكلٍ خاصّ. فللفتيات نصيب كبير في المعاناة نتيجة النِّزاع المسلَّح والحروب، سواء في المناطق الريفيّة أم الحضريّة، لجهة طلب التعليم خلال فترات الصراع، على الرّغم من أنّ حصّتهنّ في التعليم الرسميّ أكبر من حصة الذكور (كما أشرنا أعلاه). فالفتيات في سنِّ الذَّهاب إلى المدرسة يعشْنَ خلال الصراع في المناطق الريفيّة صعوبات أكبر من الفتيان، وهذا ما تُؤكِّده معظم الدراسات في هذا المجال[13]، على الرّغم من أنّ تداعيات الحرب تقع على الجنسيّن، في المناطق الحضريّة والريفيّة على حدّ سواء، وبخاصّة من حيث المشاركة التعليميّة وتعطُّل جلّ عناصرها. ويُؤكِّد تقرير اليونيسف (2015) على أنّه نتيجة لتأثير العنف والنِّزاعات المسلَّحة على تلاميذ المَدارِس في تسع مناطق من بينها سوريا والعراق واليمن وليبيا، يترعرع جيلٌ بأكمله خارج النظام التعليميّ[14].

(12) **التعداد السكّانيّ**، مصلحة الإحصاء والتعداد (طرابلس ـ ليبيا، 2006).

(13) اليونسكو UNESCO، «التقرير العالَميّ لرصد التعليم: التعليم الشامل للجميع الجميع بلا استثناء. (2020)»، **Creativecommons**، متاح على: http://creativecommons.org/licenses/by-sa/3.0/igo/

(14) اليونيسيف UNICEF، **تكاليف الحرب، دراسة لتبعات انهيار النظام التعليمي في سوريا على مستقبل الدولة**، مترجم عن The Cost Of War، (موقع السوري الجديد، الناشر: Save The Children, 2015).

ولإظهار التداعيات الناجمة عن مُعاصَرة العنف والنِّزاع المسلَّح، نُعرِّج لعرض نتائج المقابلات الجماعيّة خلال مجموعات التركيز التي طُوِّرت أساساً لهذه الدراسة. يتبع ذلك عرْض المقابلة التي تمّ إجراؤها مع فتاة واحدة وتحليلها لفهْمِ هذه التداعيات بشكلٍ معمَّق.

أوّلاً: تحليل وتقييم المُقابلات الجماعيّة المُعتمدة خلال مجموعات التركيز

بغرض التعرُّف إلى الأبعاد التأثيريّة الناتجة عن معاصرة حالات العنف والنِّزاع المسلَّح التي شهدتها مدينة طرابلس اللّيبيّة خلال العام 2019 وحتّى منتصف العام 2020، كان من الأهميّة والضرورة جمْع البيانات والمعلومات حول معاناة الفتيات والتحدِّيات التي قابلتهنّ نتيجة معاصرتهنّ الحروب، وذلك بهدف فهْم هذه المعاناة منهنّ مباشرةً، ووفق أقوالهنّ وتعبيراتهنّ واتِّجاهاتهنّ وموقفهنّ بعد هذه الأزمة وعودتهنّ لمُمارسة حياتهنّ الاعتيادية. وضمن هذا السياق سنستعرض في هذا الجانب منهجيّة الدراسة، متبوعة بعرضٍ لأهمّ نتائج مجموعات التركيز مع تحليلٍ لهذه النتائج.

الإطار المنهجيّ للدراسة وأسلوب جمْع البيانات

اعتمدت هذه الدراسة النوعيّة أو الكيفيّة المنهج، أسلوبَ المُقابلات الجماعيّة «مجموعات نقاشيّة بؤريّة»، والتي تمّ اعتمادها مع خمس مجموعات تركيز. شملت كلّ مجموعة ما بين خمس إلى ستِّ فتيات (نظراً إلى ضرورة التباعُد الاجتماعيّ ومُراعاة السلامة والمسافات الآمنة المتَّبعة بحسب بروتوكولات وباء كوفيد 19 خلال فترة إجراء المُقابلات)، وقد بلغ مجموع المُشاركات 28 فتاة. وبالنّظر إلى طبيعة عمل الباحثة كعضو هيئة تدريس في قسم علم الاجتماع في كليّة الآداب في جامعة طرابلس، تمّ اختيار هذه المجموعات من طالبات الكليّة. وقد اتَّبعت الباحثة الخطوات العلميّة في اختيار هذه المجموعات. فتمّ التركيز على المراحل الدراسيّة الأولى وكانت أعمارهنّ ما بين 17 ـ 20 سنة. وجرت المُقابلات خلال شهر كانون الأوّل/ديسمبر من العام 2020 وشهر كانون الثاني/يناير من العام 2021. وقد تمّ شرح موضوع الدراسة وبيانها وأهدافها لمجموعة الفتيات المُشاركات في مجموعات النقاش، والتأكيد لهنّ بأنّ ما يدلين به سيُستخدم فقط

لأغراض بحثيّة علميّة، وأنّ أسماءهنّ وهويّتهنّ لن يتمّ أدراجها أو عرضها في الدراسة، كما عُرِض عليهنّ الانسحاب من المقابلات إنْ رغبْنَ في ذلك، وإلحاقاً لهذه المقابلات، قامت بعض الفتيات بكتابة تجربتهنّ وتسليمها بعد ذلك، ليُصار إلى تحليلها ضُمناً مع المقابلات الجماعيّة في مجموعات التركيز.

كما تمّ الاعتماد على تطبيق منهج دراسة الحالة عن طريق إجراء مقابلة واحدة مع فتاةٍ في المرحلة ما قبل الجامعيّة تبلغ من العمر 14 سنة، لأنّ منهج دراسة الحالة هو بحث متعمّق في وحدة اجتماعيّة فرديّة واحدة يضمن الحصول على تفاصيل معمّقة حول موضوع الدراسة وإثراء الفهم لتأثيرات الحرب على الفتيات الصغيرات قبل المرحلة الجامعيّة.

وبطرْحِ مجموعة أسئلة وأفكار للنقاش، تمحورَتِ المناقشات حول الأبعاد التالية:

- التعرُّف إلى التحدِّيات التي تواجه الفتيات خلال الأزمة.
- التعرُّف إلى التجارب والمُمارسات والبرامج التي اعتمدتها الفتيات لمُواجَهة الأزمة.
- الوقوف على آراء ومقترحات وتوصيات مجموعات التركيز لتفعيل برامج محدَّدة لتجاوز الأزمة والمُعاناة.

تداعيات مُعايَشة النِّزاع المسلَّح على الفتيات بناءً على نتائج الدراسة

عند تحليل البيانات ومحاولة تبويبها منطقيّاً، يُلاحَظ أنَّ هناك ترابطاً بين الحرب والنزوح لا يُمكِن تجاوزُه أو نكران وجوده، لذلك تتبلور العوامل التأثيريّة للحرب على المنظومة التعليميّة في عوامل محدَّدة؛ وهي النزوح والتهجير الناجم عن النِّزاع المسلَّح وارتباطه بالمنظومة التعليميّة، والعوامل النفسيّة وآثارها على هذه المنظومة.

برزت جملة من الموضوعات خلال المقابلات، وعبَّرت نتائج مجموعات التركيز عن الأبعاد التالية:

أ ـ الأبعاد النفسيّة وعلاقتها بالتحصيل العلميّ

لقد تأثَّرت العمليّات التعليميّة منذ بدء الانتفاضة في ليبيا في شباط/فبراير من العام 2011. فالآثار المدمِّرة للحرب تطال الجميع ويظلّ الأطفال والفتيات بمختلف مراحل

تعليمهم الحلقة الأضعف والأكثر عرضةً للمخاطر نتيجة لويلات الحروب، ما ينعكس على نفسيّتهم من آلام ومعاناة قد تنتهي باضطرابات نفسيّة عميقة. وهذا متوافق مع التنظير وتُؤكِّده بعض الأدبيّات والدِّراسات[15]. حيث تُشير نتائج دراسة درويش (2009) حول تداعيات الحرب الإسرائيليّة على تلاميذ مرحلة التعليم الأساسيّ في مدينة غزّة إلى أنّ المَشاهد المؤلمة التي يتعرّض لها الطلّاب وسماع دويّ الانفجارات والقصف وأصوات الأعيرة الناريّة يترك حالةً من الرعب تظلّ لصيقةً لفترات طويلة. وقد لحظت دراسته أيضاً، نتيجة الحروب على غزّة، أنّ نسبة الخوف والقلق لدى الإناث بلغت 81% وهي أعلى من مثيلتها لدى الذكور حيث بلغت 62.1%. وقد صاحب الخوف والذعر والهلع ظواهر مثل الغضب والقلق والاضطرابات النفسيّة، والاكتئاب، والحزن، والكوابيس اللّيليّة، وعدم القدرة على النوم، والتبوُّل اللّاإرادي[16].

ويتبيَّن وبشكلٍ جليٍّ من خلال تحليل نتائج المُقابلات الجماعيّة خلال مجموعات التركيز، أنّ معاصرة الحرب ترتَّب عنها تدهور في التحصيل العلميّ وتدنّي المستوى الدراسيّ لجميع الفتيات المُشاركات في المناقشات. فقد أشارت الفتيات إلى أنّه خلال فترات الحرب كنّ منقطعات بشكلٍ كاملٍ عن الذّهاب إلى المَدارِس، وإلى إنّهن كنّ في مرحلة التعليم الثانويّ، وأشارت بعض الفتيات إلى أنّهنّ كنّ في حاجة إلى الانتقال إلى مَدارِس أخرى لمواصلة تعليمهنّ نظراً إلى حساسيّة المرحلة الدراسية التي كنّ فيها، وهي مرحلة الشهادة الثانوية التي تُعتبر مرحلة مفصليّة للانتقال إلى التعليم الجامعيّ، وتشكِّل قفزة نوعيّة بالنسبة إليهنّ (يترتّب عليها مستقبلي بأسره، كما أشارت إحدى المبحوثات).

وتشير نتائج المقابلات أيضاً إلى أنّ هناك أثراً سلبيّاً للحرب والنِّزاع على تحصيل الفتيات والدافعيّة نحو التعلُّم، وقد كان تأثير الحرب على مستوى تحصيلهنّ العلميّ عالياً كما أشارت الفتيات خلال المُقابلات الجماعيّة، كما تأثّر مستوى التركيز والانتباه في الفصل ومستوى مُراجعتهنّ لدروسهنّ سلبيّاً. وأشارت بعض الفتيات إلى تأثُّر نشاطهنّ ومشاركتهنّ داخل المدرسة. وعند السؤال عن الانضباط والمتابعة أظهرت استجابتهنّ

(15) عطا حسن درويش، **التحصيل والدافعيّة نحو التعلُّم لتلاميذ المرحلة الأساسيّة بعد الحرب على غزّة** (غزّة: مدوَّنة ـ الجامعات الفلسطينيّة. 2009).

(16) المرجع السابق.

أنّهنّ كنّ كثيرات التغيُّب عن المدرسة، وأنّ مستويات اهتمام الأهالي بزيارة المَدارِس والسؤال عن الأداء الخاصّ بهنّ قد تأثّر بشكلٍ سلبيٍّ خلال الحرب وبشكلٍ واضح، حيث إنّ معظم الفتيات في عيّنة الدراسة كنّ يعِشنَ في مناطق النِّزاع بحسب ما عبَّرن بكلماتهنّ «نقطن في قلب الحدث». الإقامة في هذه المناطق التي شهت إقفال الطرق وصعوبة الحركة فيها وانقطاع أو تعذُّر المرور ببعض الطرقات لأسبابٍ أمنيّة، ترتَّب عنه عدم القدرة على مغادرة البيوت في معظم الأحيان.

وأدلت الفتيات، وبالأخصّ اللّواتي كنّ يعشنَ في مناطق الاشتباكات، بشهادات معبِّرة عن تداعيات العنف والنِّزاعات السّائدة على حياتهنّ اليوميّة وأوضاعهنّ النفسيّة. فقد صرّح العديد منهنّ بأنّ انتشار النِّزاع وبخاصّة المُتناقل عنه عبر وسائل الإعلام، جَعَلَ العديد منهنّ وأُسَرِهنَّ يتجنّبون التنقُّل خارج البيت وبخاصّة في المساء أو لمسافاتٍ طويلة خوفاً من التعرُّض لأيّ أحداثٍ طارئة. كما أدّى ذلك إلى تقليصٍ كبير في الزيارات العائليّة للأصدقاء وبخاصّة الزّيارات البعيدة، وأعاقهنّ عن الالتحاق بمَدارِسهنّ وكلّيّاتهنّ في معظم الأحيان.

لقد عبّرت العديد من الفتيات عن حالة «الخوف والقلق» بسبب حالة انتشار أعمال العنف التي أدّت إلى توقُّف مختلف الأنشطة والحركة، ما ترتّب عنه إحباط وتدهور للحالة النفسيّة بحسب تعبيرهنّ، حيث تقول إحدى الفتيات:

«المستقبل أمامي كان مجهولاً، لقد عانيتُ نفسيّاً وأنا أقطن في قلب الحدث، لم أستطع الخروج للدراسة وحياتي توقّفت، كانت أيّاماً صعبة وزاد انقطاع الكهرباء من المعاناة نتيجة انقطاع الأسلاك الكهربائيّة في المنطقة. لقد وجدتُ صعوبة في التقدمّ للامتحانات بسبب إقفال الطرق. لقد فشلتُ في اجتياز المقرّرات الدراسيّة وهذا أصابني بالإحباط وفاقم من أزمتي النفسيّة. إنّها ذكريات لا زالت في قلوبنا حتّى الآن. لقد كانت أيّامَ رعبٍ من الحرب التي تدور بين الطرفَين، ولكنّنا كنّا نحن مَن يستقبل الرصاص والقذائف، لقد تمّ زرْع الخوف في قلوبنا وتهدّمت بيوتنا ومعها قلوبنا.»

كما كتبت مُشارِكةٌ أخرى في مجموعات التركيز وتبلغ من العمر 19 سنة عمّا شهدته خلال الحرب:

«أكتب ذكرياتي بلون أسود، فقد كانت أسوأ الأيّام والشهور والسنين التي مرّت علينا، حلمي توقّف، وشغلي توقّف، وطموحي أصبح يتضاءل، لقد تغيّر كلّ شيء، في لحظة خسرنا كلّ شيء. ومهما كانت قوّتنا ودرجة تحمّلنا سننهار. لقد خرجنا من بيتنا وكلّ شيء يذكّرنا به، ودّعنا بيتنا بلا أمل ووضعنا كلّ الاحتمالات. لقد كنتُ أقاوم من أجل عائلتي مع أنّ نفسيّتي كانت في الحضيض. ونقول إنّها أزمة وتمرّ».

تشير الدراسات والبحوث إلى أنّ أعراض اضطراب ما بعد الصدمة واضحة على عدد كبير من الأطفال اللّيبيّين بعد الحرب، وهذا ما يُؤكّده المُختصّون في الأمراض النفسيّة والعقليّة، فالعنف الذي يتعرّض له الأطفال في البلدان التي تشهد النِّزاعات المسلّحة، يُؤثِّر على نفسيّتهم، إلى جانب المتداول في داخل الأسرة وفي الشارع والمدرسة عن عمليّات الخطف والجرائم المختلفة ومنها القتل. ثمّة أطفالٌ تعرّضوا للعنف المباشر عندما شهدوا سقوط قذائف على الأحياء التي يسكنونها أو عندما نزحوا مع أُسرهم هرباً من الاقتتال[17]. إنّ تبِعات ما بعد الصدمة على الفتيات المُعاصرات للنزاع المسلَّح تُؤثِّر بشكلٍ كبيرٍ في مسار حياتهنّ الطبيعيّة. ويُؤكِّد المُختصّون أنّ الكوابيس والأحلام المزعجة قد تتكرّر على خلفيّة العنف الذي يتعرّض له الصغار والفتيات من جرّاء الحرب، من قبيل صوت الطائرات أو صفّارات إنذار السيّارات وأصوات القذائف، كلّ ذلك يُخلِّف حالاتٍ من الاكتئاب والخوف وردود فعل لا إراديّة لدى الصغار والفتيات عند سماعها. كما أنّ هناك حالاتٍ قد تدفع في اتِّجاه انعزال الصغار لدرجة ترك المدرسة بسبب التخوّف من المحيط، في حال لم تستوعب الأسرة حالة الصغير وتُشعِره بالأمان، خصوصاً إذا كانت الأسرة نازحة وتعاني ظروفاً قاسية[18].

وتُصنِّف بعضُ الدراسات أطفال ليبيا ما بعد العام 2013 بـ«أطفال الحرب»، حيث إنّ هناك مخاطرَ سوف تُهدِّد مَن يعاني من جرّاء صدمات الحرب على مدى سنواتٍ طويلة[19]. كما أنّ هناك سلوكيّات رُصِدت في المَدارِس لدى بعض الأطفال، هي من دون

(17) «الحرب تخلّف آثارها المدمّرة في نفوس أطفال ليبيا،» **العربي الجديد**، متاح على:
www.alaraby.co.uk/ليبيا-أطفال-نفوس-في-المدمّرة-آثارها-تخلّف-الحرب

(18) المرجع السابق.

(19) المرجع السابق.

شكّ أعراض اضطراب ما بعد الصدمة، من قبيل جنوح بعض التلاميذ ومَيلهم إلى تحطيم كلّ شيء والاعتداء على زملائهم. لكنّ الأشدّ خطورة يكمن في استجابة أطفال الحرب في المرحلة الإعداديّة لتعاطي المخدَّرات. وقد ضبطت الشرطة بالفعل مَعدّاتٍ لها علاقة بتعاطي المخدَّرات بين مستلزماتٍ مدرسيّة تعود إلى بعض تلاميذ هذه المرحلة[20].

ب ـ تداعيات النزوح والتهجير على المنظومة التعليميّة

لقد شملت حركة النزوح سكّانَ مناطق متعدِّدة من ليبيا على امتداد فترة النِّزاعات المسلَّحة منذ العام 2011 وحتّى العام 2020 وما زالت مسبِّباتها قائمة حتّى اليوم. ونظرًا إلى استمرار الحروب والصراعات عانت المنظومة التعليميّة في العديد من المُدن اللّيبيّة الكثير من المُشكلات والأزمات، حيث أثّرت حالة النِّزاع سلبًا على التعليم ليس في مناطق النِّزاع فقط، بل أيضاً في المناطق الآمنة التي أصبحت مركزاً جديداً لملايين النازحين، الأمر الذي أسهم في تأجيل استكمال الدراسة وارتفاع نِسَب الفتيات والفتيان الذين هُم خارج المدرسة، يُضاف إلى ذلك المشكلات النفسيّة وحالات التوتُّر والفراغ لدى الفتيات، وهذا من شأنه أن يُؤثِّر على جودة التعليم ومُخرجاته بشكلٍ يُهدِّد المنظومة التعليميّة بأسرها.

إنّ التهجير والنزوح النّاتجَين عن الأزمة اللّيبيّة في السنوات الأخيرة أثّرا بشكلٍ واضح في المنظومة التعليميّة. فقد ترتّب عن الاشتباكات المسلَّحة التي تركّزت منذ البداية في المناطق الآهلة بالسكّان حركة نزوح واسعة من الفارّين من نيران النِّزاع المسلَّح. وتشير بيانات المنظّمة الدوليّة للهجرة (2020) إلى أنّ عدد النازحين كان 250,000 خلال العام 2019، ثمّ تصاعد هذا العدد إلى الضعف حتّى بَلَغَ 450,000 خلال شهر حزيران/يونيو في العام 2020. أمّا توزيعهم بحسب الجنس فقد كان حوالى نصف العدد من الذكور والنصف الآخر من الإناث[21]. وتشير البيانات أيضاً إلى أنّ 96% من النازحين غادروا مناطقهم بسبب تدهور الأوضاع الأمنيّة. كما أنّ أزمة النزوح كان لها تأثير في السلامة

(20) شبكة النبأ، «التعليم في زمن الحروب: حرمانٌ قسريٌّ لمُستقبل الطفولة»، **شبكة النبأ**، متاح على:
https://annabaa.org/arabic/education/4220

(21) المنظّمة الدوليّة للهجرة IOM، «النزوح الداخليّ في ليبيا: النزوح من طرابلس خلال الأعمال العدائيّة في ما بين عامَيْ 2019 و2020»، متاح على:
https://reliefweb.int/sites/reliefweb.int/files/resources/DTM_MinistryOfDisplacement_2019-2020_Report_ARABIC.pdf

البدنيّة والعقليّة والنفسيّة للنازحين، إذ تعرَّض معظم هؤلاء النازحين للعديد من التحدِّيات، وأهمّها الإشكالات المتعلِّقة بالحماية، كما أنّهم قطنوا في أماكن ومساكن غير مناسبة تماماً للسكن، ما أثَّر في مستوى هشاشتهم وبخاصّة بالنسبة إلى مَن اضطرّوا للإقامة في منشآتٍ غير نظاميّة. وقد تأثّر الأطفال والفتيات تأثّراً بالغاً من هذه الوضعيّة، إذ كانوا يُمثّلون قرابة 48% من النازحين[22]. ونتيجة لأنّ بعض المشاركات في مجموعات التركيز شهدنَ النزوح فقد تضمّنت الحوارات الجماعيّة تساؤلات حول أبرز هذه التحدِّيات المرتبطة بالنزوح، وطبيعة تفاعلها مع بعضها واقتراحات لأهمّ سُبُل الوقاية والمعالجة لهذه التحدِّيات، وقد لاقت هذه الموضوعات استجابة وحوارات عميقة ومطوَّلة خلال المقابلات الجماعيّة؛ نعرض في ما يلي أبرز ما جاء فيها:

إنّ عمليّة النزوح من شأنها أن تُحدث تفكُّكاً واسعاً في الأسرة وعلاقاتها، وتفكُّكاً في النسيج الاجتماعيّ، وتوسّعاً في حالة العزلة نتيجة الابتعاد عن الأهل والمعارف والأصدقاء، ما يؤثِّر سلباً على الحالة النفسيّة، بالإضافة إلى إضعاف المستوى التعليميّ والثقافيّ، وانتشار العديد من المظاهر الهدّامة المُرتبطة بالمشكلات الاجتماعيّة، واستمرار حالة عدم الاستقرار الاجتماعيّ. ويتمحور أثر النزوح تحديداً في علاقته بعمليّات التعليم المختلفة في العديد من الأبعاد المهمّة، والتي برزت من خلال مجموعات التركيز، ومن أبرز الانعكاسات السلبيّة نتيجة النِّزاع المسلَّح الدائر في ليبيا تدنّي مستوى التعليم، بشكله العموميّ، وتحوُّل مؤسّساته إلى ملاجِئ؛ لقد أشارت بعض الفتيات في عيِّنة الدراسة هذه إلى أنّه ونتيجة النِّزاع المسلَّح في جنوب طرابلس، اضطرّت عائلتهنّ في البداية للُّجوء مع بعض الجيران للسكن في المَدارِس، وكانت المدارس معطَّلة تماماً ما جَعَلَ بداية الدراسة فيها أمراً مستحيلاً. وفي هذا السياق تشير بيانات منظّمة الهجرة الدوليّة (2020) إلى أنّ المَدارِس شكّلت 32% بالنسبة إلى النوع الأكثر شيوعًا من المساكن التي لجأ إليها النازحون خلال حرب 2019 على مدينة طرابلس، تليها بنسبة قريبة الإقامة لدى أُسر مُستضيفة بنسبة30%. بينما كانت نسبة السكن في بيوت مُستأجرة حوالى 29%[23].

(22) المرجع السابق.

(23) المرجع السابق.

كما أنّ المؤسّسات التعلميّة في ليبيا كانت أمام تحدٍّ جديد وكبير تمثَّلَ بالطلبة النازحين؛ إذ تركَ هؤلاء مَدارِسهم، ومنهم مَن كان على عتبات التخرُّج. لقد أشارت بعض الفتيات في عيِّنة هذه الدراسة إلى أنّ هناك اختلافاً في مستوى المَدارِس التي انتقلْن للدراسة فيها، ما أثَّر بالضرورة على مستوياتهنّ الدراسيّة. كما أنّ زمن الانتقال إلى مَدارِس أخرى من شأنه التأثير في مستوى التعليم؛ حيث يُعاني النازحون من صعوبة الوصول إلى المَدارِس أو مِن خللٍ في التعليم بسبب استمرار انعدام الضرورات الأساسيّة. فوضْعُ المَدارِس الموجودة في مناطق المخيَّمات على سبيل المثال سيِّئ جدّاً (بحسب ما أشارت إليه المبحوثات) وهي تُشكِّل بيئة مختلفة عن المدارس العامّة الأخرى التي يلتحق بها النازحون خارج المخيَّمات. فالمَدارِس في مناطق المخيَّمات تُعاني من النواحي المادِّيّة والعمليّة، ومن عدم رغبة الطلّاب بالتعلُّم ومن عدم رغبة المعلّمين بالعمل، فضلاً عن افتقارها إلى المقوِّمات والوسائل الأساسيّة اللّازمة والمُساندة لعمليّة التعليم.

كما برزت على السطح العديد من الإشكالات التي ناقشتها المُتحاورات في مجموعات التركيز، منها أشكاليّات تتعلّق بفقدان الوثائق الرسميّة. وفي هذا السياق تُشير الفتيات إلى ضياع النتائج الدراسيّة والأوراق التي تُحدِّد مستواهنّ الدراسيّ في بعض المَدارِس، وإلى أنّ عدم وجود المستندات الرسميّة أدّى إلى فقدان أعمال السنة الدراسيّة لبعضهنّ، وعدم القدرة على إحداث توازن لتحقيق اجتياز المقرّرات الدراسيّة.

وللنزوح أبعاد ترتبط أيضاً بالبيئة التعليميّة، حيث يترتّب عنها ازدياداً في أعداد الطلّاب ما يؤدّي إلى الاكتظاظ الفصليّ، وهذا من شأنِه أن يزيد من ضعف التركيز داخل الفصل الدراسيّ، ويُسهم في إيجاد بيئة قد تولِّد إشكالات بين التلاميذ. كما أشار بعض أفراد العيِّنة في مجموعة التركيز إلى إشكاليّات تتعلّق بتوافر الكتاب المدرسيّ. فقد أشارت إحدى الفتيات في مجموعات التركيز إلى ذلك قائلة: «لقد استخدمنا الُكتب القديمة لطلّاب السنة الماضية، كنّا ندرس في كتب قديمة ولكنّنا لم نتوقّف وهذا المهمّ على الأقلّ».

إنّ الانتقال من مدرسة إلى أخرى أمرٌ فيه معاناة تؤثِّر على الاندماج وعلى المستوى العلميّ للطالب النازح من جهة، وعلى رفضِ الطلبة الوافدين إلى البيئة الجديدة من جهةٍ أخرى. كما تظهر مظاهر التمييز التي تُمارسه بعض الطالبات على الطالبات النازحات،

وهو ما يؤثِّر على تحصيلهنّ ومستواهنّ العلميّ، وعلى تكيّفهنّ الاجتماعيّ. وتشير النتائج إلى أنّ معظم استجابات المبحوثات كانت تتمحور أساساً حول فقدان التواصُل مع جماعات الأصدقاء وصعوبته.

وللنزوح أبعادٌ نفسيّة أيضاً، فقد أشارت الفتيات إلى بروز إشكاليّات على مستوى الذات (أبعاد نفسيّة). حيث إنّ هناك صعوبة التكيُّف والتأقلُم مع البيئات الجديدة. تُشير إحدى الطالبات في مجموعات التركيز إلى أنّها «وجدت في البداية صعوبة في التكيُّف ثمّ استطاعت الاندماج». قالت أخرى: «في بداية النزوح كان عندي عزوف عن الدراسة والواجبات ولم يكُن هناك تواصل بيننا وبين الطلبة الآخرين في المدرسة في المناطق الآمنة». وهذه الأبعاد تَرتَّب عنها تدنّي المستوى العلميّ للفتيات، وذلك نتيجة لتغيير البيئة وتضافُر عوائق الاندماج مع البيئة المحليّة التي وفدَتْ إليها الطالبات الجدُد. وقد أشارت العديد من الفتيات إلى المشكلات اليوميّة التي يعشنها ومنها الانقطاع المتكرِّر للكهرباء والماء و«طوابير البنزين»، وأكّدت العديد منهنّ أنّ هذه المُشكلات زادت من معاناتهنّ اليوميّة.

ج ـ استراتيجيّات المُعالَجة ومُقاوَمة الفتيات للأزمة

تمّ سؤال الفتيات عن الأدوات التي استخدمْنها للتغلُّب على الأزمة التي شهدنها نتيجة معاصرتهنَّ الحرب، وكيف كُنَّ قادرات على العودة إلى حياتِهنّ واستئناف تعليمهنّ وتحقيق أحلامهنّ المستقبليّة. فعلى الرّغم من المُعاناة والألم الذي عبَّرنَ عنه نتيجة خبرتهنّ خلال السنة الماضية، وفي بعض الأحيان عبَّرنَ بألم وعدم ارتياح، إلّا أنّهنّ وفي العديد من محطّات المقابلات الحواريّة أبرزْنَ حالة تفاؤل عالية واستعدادات وإرادة للعمل، من أجل مواجهة التحدّيات والمضيّ قدُماً في طريقهنّ. فقد عبّر بعضهنّ عن تفاؤلهنّ بالنسبة إلى المستقبل، وأكّد بعضهنّ الأخر أنّ المستقبل أفضل لليبيا وأنّ القادم سيكون خيراً، وأنّ التجربة ومُعاصَرة الحرب لا تعني نهاية حياتهنّ أو أنّهنَّ فقدنَ الأمل في النجاح، تقول إحدى الفتيات:

«لقد رجعتُ إلى حياتي الطبيعيّة تدريجاً، حمدنا الله على سلامتنا وكانت تجربة واختبارَ صبرٍ من الله عزّ وجلّ وأملنا في الله كبير بأن يُعوّضنا كلّ خير».

كما بَرَزَ دور الأسرة كمصدر أساسيٍّ للدعم والمُساندة، وتُشير إحدى الفتيات في مجموعة التركيز إلى ذلك بقولها:

«لقد علّمتنا التجربة الكثير، تعلّمنا وعرفنا نُنَظِّم حياتنا، لقد كانت تجربة مؤلمة وانتقالاً إلى منزل تمّ إيجاره ليجمعنا مع أخوتي بعيداً عن نيران الحرب. حيث ساد الشعور بعدم الاستقرار وخوف دائم من المجهول. ولكنّنا تعلّمنا الصبر والقوّة والإصرار والعزيمة. عرفنا قيمة الوقت وقيمة كلّ شيء نمتلكه. والأهمّ أنّ تماسك الأسرة كان أكثر وأكثر. وأصبحتُ أكثر أعتماداً على نفسي. وعلى الرّغم من تأخرّي سنة دراسيّة كاملة، فإنّني ما زلتُ صامدة، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم».

وتشير فتاة أخرى إلى مساندة الأم لها ودورها في تخطّي الأزمة، حيث تقول:

«كنتُ استمدّ الصبر من أمّي، كانت تجعلنا صابرات وتمّدنا بالصبر بكلمة الفرج قريب. وبعد سنة وشهرين من الحرب والرعب والخوف، دراستنا كانت متوقِّفة وحلمنا كان متوقِّفاً. ولن أنسى سجدة أمّي أمام بيتنا عندما عدنا إليه وهي تقول الحمد لله وتكرّرها. لقد استمدّيتُ منها القوّة للعودة ومواصلة دراستي وتحقيق أحلامي في الحياة».

كما قامت وسائل التواصُل الاجتماعيّ بدورٍ فاعلٍ ساعد الفتيات في المضيّ قدماً، حيث أشارت معظم الفتيات المشاركات في المقابلات الجماعيّة إلى أنّ استخدام مواقع التواصل الاجتماعيّ مثل الفيسبوك وغيره من التطبيقات الأخرى أسهم في مساندتهنّ للتواصل مع الأصدقاء والخروج من دائرة العزلة والشعور بالوحدة. كما أنّ هذه الوسائل التواصليّة كانت تمدّهنَّ بما يجري ويتتبَّعنَ الأحداث عبرها. إحدى المشاركات في مجموعات النقاش تبلغ من العمر 17 سنة قالت:

«الفيسبوك ساعدني مع صديقاتي في تجاوُز مشكلة متابعة المنهج، فقد تمكّنا من فتح مجموعة خاصّة بنا في موقع الفيسبوك، وكنّا نستعرض من خلالها ما يتمّ دراسته في الفصول، وقد تمكّنّا على الأقلّ من متابعة بعض الموضوعات وليس كلّها».

كذلك عبَّرت الفتيات خلال المقابلات الجماعيّة عن الثقة بقدراتهنّ على التغلُّب على تداعيات الحرب، واستعادة الرغبة لمواصلة تعليمهنّ وتحقيق طموحات وأحلام حياتهنّ بشكلٍ عامٍّ، كما عبّرنَ عن الاستعداد للمشاركة في الجهود كافّة الرّامية إلى تحقيق الاستقرار والأمن في البلاد. وقد أشارت بعض الفتيات إلى كونهنّ على الرّغم

مِن الظّروف الصّعبة، والإمكانات المحدودة، قادرات على المشاركة بمُبادراتٍ جماعيّة عدّة وبالأخصّ الفرديّة لحماية أنفسهنّ وأخريات من أقاربهنّ أو من الأصدقاء، وبخاصّة مَن هُم في وضعيّة النزوح أو التهجير. وأشار بعضٌ منهنّ إلى المشاركة داخل الجامعة أو ضمن منظّمات المُجتمع المدنيّ لدعم النازحين في المناطق الآمنة.

وبغرض تعزيز فُرص المقاومة وزيادة دعم استراتيجيّات المُعالَجة لمُساندة الفتيات لتخطّي الأزمة، تمّ عرض كّمٍّ هائلٍ من التوصيات من قِبَل الفتيات خلال المُقابلات الجماعيّة، الأمر الذي من شأنه أن يُسهم في الرفع من الروح المعنويّة للفتيات والمساهمة بالنهوض بالمنظومة التعليميّة وإنجاح برامجها المُختلفة؛ إذ إنّ ما يضمن نجاح هذه المُبادرات والبرامج هو مشاركة الجميع بما في ذلك الفتيات أنفسهنّ في ذلك. لقد أُثيرت العديد من المقترَحات في هذا السياق؛ ومنها:

ـ أشارَتِ الفتياتُ إلى الدور الذي يُسهِم به الاختصاصيّون الاجتماعيّون في المؤسّسات التعليميّة كافّة، كالمَدارِس والجامعات اللّيبيّة. هذا الإسهام يُعين على تجاوز الألم ويُساعد في تقليل التداعيات النفسيّة التي سبّبتها الحرب للطالبات وحتّى للطلبة الشباب، وذلك في مُختلف مراحل التعليم.

ـ تقديم محاضرات متعلِّقة بالتنمية البشريّة، وأيضاً الدينيّة، مع إبراز أهميّة عِلم النَّفس وتقديم الدعم النفسيّ في مراكز مخصَّصة للغرض ذاته، وتأهيل الطالب وإعادة بناء الشخصيّة وتطويرها. مع العمل على غرس الوعي الاجتماعيّ من خلال وِرَش العمل والمُحاضرات التوعويّة داخل المُجتمع.

ـ التأكيد على دَور الفتيات الفاعل في تجاوز التداعيات السلبيّة والصعوبات الناتجة عن الحرب.

ـ العمل على توفير نادي الكتب والمكتبة داخل المدرسة، والعمل على إعادة الدروس للملتحقين متأخِّراً، عن طريق الفترات الإضافيّة بطريقة مقنَّنة. وإدماج موادّ تهدف لنشر ثقافة الحوار والسِّلم وحلّ النِّزاعات والتّماسك الاجتماعيّ.

ـ الدعوة إلى تشجيع البرامج والمشروعات الدّاعمة لتمكين الفتيات وتدعيم مشاركتهنّ وتعزيز حقوقهنّ بما في ذلك حقّهنّ في التّعليم والعمل والتصدّي للتّمييز

وللعنف ضدّ الفتاة والمرأة. وهي إجراءات من شأنها أن تُعزِّز بدورها ثقافة الحوار والسِّلم ونبْذ العنف في البلاد.

ـ تعزيز حقوق المرأة والتّساوي بينها وبين حقوق الرّجل، وضمان نشْر ثقافة وأنشطة مُحارِبة للتمييز بعامّةٍ والتمييز بين الجنسيّن بخاصّة على نطاقٍ واسع.

ثانياً: النتائج المتعلِّقة بدراسة الحالة (المقابلة الفرديّة)

أسلفنا أنّه من أجل الوصول إلى فهْمٍ أفضل لتداعيات النِّزاع المسلَّح على المُراهقات في ليبيا، تمّ الاعتماد على تطبيق منهج دراسة الحالة عن طريق إجراء مقابلة واحدة مع فتاة تدرس في المرحلة ما قبل الجامعيّة تبلغ من العمر 14 سنة. وقد تمّ توضيح تفاصيل المقابلة للفتاة وأخْذ الإذن من والدتها للموافقة على إجراء هذه المقابلة، مع التأكيد بأنّ ما يرد في هذه المقابلة من تفاصيل قد تُبيِّن هويّتها الحقيقيّة (مثل اسمها أو اسم مدرستها أو أماكن الإقامة) لن يتمّ أظهارها في هذه الدراسة.

وأهمّ النتائج التي يُمكِن استخلاصها من هذه المقابلة أو دراسة الحالة، أنّه فضلاً عن التأثيرات النفسيّة العميقة للحرب، فإنّ الفتيات كنَّ الفئة الأكثر هشاشةً وتعرُّضاً للمخاطر كالاغتصاب والقتل، كما برزت بعض أشكال المعاملة التمييزيّة بين الجنسيّن داخل العائلة الواحدة، ولَّدت ضغوطاً اجتماعيّة على الفتيات. كما نتج عن عمليّة النزوح تفاوتٌ ثقافيّ وأنماط عيش كان لها تأثيرها على الفتيات الصغيرات. كما بَرَزَ وبشكلٍ واضح الدورُ الاجتماعيّ المهمّ للأسرة الممتدّة (الأهل والأقارب) كمصدرٍ أساسيٍّ للدعم في ليبيا.

نصّ المقابلة (بتصرّف فقد تحدّثت سماح باللّهجة اللّيبيّة)

اِسمي سماح وعمري 14 سنة، طالبة في الصفّ الأوّل الثانويّ، طموحة وأعتمد على نفسي في كلّ شيء، أقرأ وأدرس وأتعلّم وأحبّ الحياة. أعيش في أسرة تتكوّن من أبي وأمي وثلاثة إخوة وثلاث بنات. ترتيبي الثالث بعد اثنين من الأخوة الذكور في الأسرة. قبل الحرب كنّا نعيش في بيتنا لا ينقصنا شيء. وكنتُ أدرس مع أخي وأختي في مدرسة خاصّة وكنّا متفوِّقين في الدراسة وكان اهتمام والدتي بتعليمنا متساوٍ ومِن دون تمميز مع أخواني.

في بداية الحرب كنتُ أصارع الإحباط والحزن والخوف. أصابتني الصدمة والرعب عندما شاهدتُ الدِّماء تنزف في وطني. أصبت بالخيبة والقهر وفقدتُ الرغبة في التحدُّث مع الآخرين وليس لديّ الرغبة في المخالطة. كان بيتنا في منطقة قريبة من الاشتباكات وكنّا نسمع أصوات القذائف وأصوات الرّصاص بشكلٍ مخيف. ولم نكنْ نرغب في مغادرة بيتنا ورَفَضنا الخروج من البيت خلال الشهور الأولى للحرب. فلم نكُن نرغب أن تتشتّت العائلة. ولكنْ بعد أربعة أشهر كاملة أصرّت والدتي على الخروج من البيت والانتقال إلى منطقة آمنة لنا. هل تدري لماذا؟ لأنّ النساء من الأقارب والمعارف لنا، عندما يتواصْلن مع أمّي كنّ يستغربنَ استمرارنا في البقاء في بيتنا وعدم الانتقال إلى منطقة أكثر أمناً. كانت تعليقاتهنّ لأمّي حرفيّاً: هل تنتظرين اقتحام الكتائب المسلَّحة والمرتزقة في المنطقة لبيتكم واغتصاب بناتك؟

وعند سؤالها هل تعرف أحداً تعرَّض للاغتصاب، أجابت بالنفي وبأنّها لم تسمع بذلك أبداً. ولكنّها أشارت إلى أنّ ثلاثاً من صديقاتها وكنّ يسكنّ في مناطق قريبة من النِّزاع المسلَّح تعرّضنَ لسقوط القذائف بينما كنّ مُجتمعات في حديقة المنزل الأمر الذي أدّى إلى وفاتهنّ مباشرة، وهذه من الذكريات السيِّئة التي تشعر بها، بحزنٍ عميق، عن فترة الحرب.

هذا جعل أمّي تلحّ على خروجنا ومغادرتنا. والخوف علينا نحن البنات جعلَ والدي وبعد أربعة أشهر يصرّ أيضاً على انتقالنا للبقاء والسكن في بيت جدّي. وكان رأي أخواني وأبي ينبثق من كوننا ضعيفات ولا نستطيع حماية أنفسنا وقالوا لنا إذا ازدادت حدّة الاشتباكات فهُم يستطيعون الهرب والجري لمناطق آمنة ولكنّ البنات وأمّي سنكون حِمْلاً ثقيلاً ويخشون أن نتعرّضَ للاغتصاب. كان بيت جدّي خارج ضواحي مدينة طرابلس وكانت منطقة آمنة وبعيدة عن الاشتباكات. اِنتقلتُ أنا وأخواتي البنات ووالدتي وأخي الأصغر الذي كان عمره خمس سنوات. لأنّ الخوف كان علينا باعتبارنا ضعيفات وظلّ والدي مع اثنين من إخواني في بيتنا. وخوف أمّي علينا كان بشكلٍ متزايد. كانت ترفض خروجنا من البيت بشكلٍ قاطع. فُرض علينا الحجاب ولبس الملابس الواسعة. كان الخوف علينا بشكلٍ أوضح من الذكور. كان إخواني مستمرّين في مَدارِسهم وجامعتهم ولم يتمّ منعهم من الخروج عكسنا تماماً.

كنتُ أدرس بالشهادة الإعداديّة وقام والدي بنقلي إلى مدرسة عامّة قريبة من بيت جدّي أنا وأختي. أختي لم تستطع الاندماج مع بيئة المدرسة العامّة الجديدة عليها، والمختلفة تماماً مع مدرستنا الخاصّة. الفصول مزدحمة والمستوى يختلف عمّا تعوّدنا عليه. انتهى الأمر بأن التحقتُ أنا فقط بالامتحانات النهائيّة قمتُ بمراجعة دروسي بنفسي والاستعانة بالأسئلة الاسترشاديّة ونجحت.

وتُؤكِّد سماح خلال المقابلة أنّها وجدت السلام في بيت الجدّ وما كان منغِّصاً عليهم إلّا انقسام العائلة. تقول:

علّمتنا الحرب كيف كانت قلوب الناس مترابطة وعرفتُ محاسن العائلة وأهميّة وجودها. لقد تعلّمتُ الطبخ خلال هذه الفترة حيث كنتُ أشارك العائلة في ذلك وتعلّمت تحديداً صناعة الحلويات، حيث كنّا نمضي معظم الوقت في الطبخ والاجتماع مع العائلة الممتدّة.

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة موضوع تداعيات الحروب والنِّزاعات المسلَّحة في ليبيا على الفتيات، وهدفت لمعرفة أثرها القريب والبعيد المدى في المنظومة التعليميّة وعلاقة ذلك بأبعادٍ مهمّة كالتهجير والنزوح وتراكم العوامل النفسيّة والاجتماعيّة المؤثِّرة في هذا الجانب. وبعد تجميع البيانات الخاصّة بهذه الدراسة الوصفيّة الكيفيّة عن طريق المقابلات الجماعيّة ودراسة الحالة، خلصت الدراسة إلى عدد من النتائج أهمّها: أنّه وعلى الرّغم من المكاسب التي نالتها الفتيات في ليبيا وتطوُّر مستويات تعليمهنّ خلال العقود الأخيرة، إلّا أنّ النظام التعليميّ شهد العديد من العوائق التي حالت دون الوصول به إلى مستوياتٍ عالية من الجودة. كما أنّ هشاشة الأوضاع الأمنية والنِّزاع المسلَّح، كانت له تداعيات خطِرة على أوضاع الفتيات التعليميّة. ولذلك كان للفتيات نصيبٌ كبير في المُعاناة نتيجة النِّزاع المسلَّح والحروب.

إنّ الأزمات والحروب وتداعي المنظومة التعليميّة قد تؤدّي إلى تخلّف الكثيرين عن الركب، وبخاصّة الفتيات المُراهقات، حيث إنّ عدداً كبيراً منهنّ قد لا يجلسنَ على المقاعد الدراسيّة مرّة أخرى، وهذا من شأنه أن يُسهِم في الرفع من نِسَب الزواج المبكر

في المُجتمع ومعدّلاته، ولاسيّما في ظلّ البطالة غير المُبرَّرة التي لا تُحقِّق أهداف التنمية المُستدامة والتغيير المنشود للنهوض بمكانة الفتيات والنساء في المُجتمع اللّيبيّ، وتمكينهنّ معرفيّاً واقتصاديّاً وسياسيّاً. كما وأنّه ونتيجة للنزاع وحالة عدم الاستقرار، فإنّ كابوس إدامة النِّزاع والصراع من شأنه أن يقود إلى خطر فقدان المكاسب غير المسبوقة التي نالتها الفتيات اللّيبيّات خلال مسيرتهنّ التعليميّة. لذا لا بدّ من العمل على إصلاح تعليم الفتيات وإحكام توافقه مع احتياجات أسواق العمل في ليبيا، وتوفير الفرص التّدريبيّة والتأهيليّة لخلق فُرص الحصول على عملٍ مطابق للتخصُّصات. إنّ مسألة توفير العمل مهمّة جدّاً للحدّ من البطالة العالية وبالأخصّ البطالة بين المتخرّجات الجدد.

وبالنظر إلى حاجة المُجتمع اللّيبيّ إلى دراسات وبحوث علميّة لفهم الواقع التربويّ والتعليميّ المتردّي، ونظراً لشحّ الدراسات وندرتها في هذا الجانب المتعلِّق بالفتيات والمُراهقات، فإنّه من الضرورة إجراء المزيد من البحوث العلميّة والدراسات المتخصِّصة عن دَور الأزمات وتأثيرها على هذه الشريحة، ولاسيّما مع تزامُن هذه الأزمة مع وباء كورونا، الذي ترك بصمته المرعبة على المنظومة التعليميّة. لذا ينبغي إخضاع واقع النظام التعليميّ في المُجتمع العربيّ بشكلٍ عامّ وليبيا بشكلٍ خاصّ، نتيجة تداعيات الأزمات المُعاصرة، للبحث والتقصّي والدراسة، وتحديداً تأثير ذلك على أوضاع الفتيات والمُراهقات في هذه البلاد.